

بقاهر بالم رات
ترجمه جميل مال الدين

مظاهر الاستعمار الجديد

يعتبر رالف بالم دات احد اساطين الحركة العمالية البريطانية واحد المنظرين الماركسيين البارزين الذي عرف دوما بتأييده الحار للحركات التحررية العربية ، وحركة التحرر الوطني العالمية عامة . ويعالج بحثه هذا قضية بالغة الخطورة هي مظاهر الاستعمار الجديدة في الظروف المختلفة ، في شتى البلدان ، ومنها بلداننا العربية . (المترجم)

توجد ايضا دول من هذا النوع . على انها لم تصد الطراز العام في عالمنا الان ، الذي ظهرت فيه كثرة من الدول المستقلة الجديدة . بيد انه يظل من الخطل اقامة حد فاصل بين الاستعماريين «القديم» و«الجديد» كما لو انه لا يوجد بينهما شيء ما مشترك . فان كثيرا من ملامح «الاستعمار الجديد» قد ظهرت ، ولو في طور الجنين على الاقل ، منذ المرحلة السابقة للاستعمار . ومن جهة اخرى ، فان الاستعمار القديم (السيطرة الاستعمارية المباشرة ، الحروب الاستعمارية ، الاضطهاد الاستعماري) ما برح يعيش الى جانب الاستعمار الجديد . ومع ذلك ، فان الاستعمار الجديد يمثل بمجمله مرحلة جديدة في ستراتيجهته الامبريالية العامة ، وهو يتجاوب مع المرحلة الحاضرة من التحلل المطرد باستمرار للنظام الاستعماري ، هذه المرحلة التي كانت شاهدا على استقلال كثير من المستعمرات القديمة .

ان قرار المؤتمر الثالث للشعوب الافريقية حول الاستعمار الجديد يذكر المظاهر الاساسية لهذا الاستعمار في الحقل الاقتصادي والسياسي والعسكري . ولكن ثمة نفرة خطيرة في هذا القرار : انه لا يدخل في عداد هذه المظاهر لا الحرب الباردة ولا محاربة الشيوعية ، اللتان هما سلاحان رئيسيان . الاستعمار الجديد الآن ، الى جانب الدعاية التي تنطلق تحت شعارات تقول مثلا ابتعدوا عن الحرب الباردة ! او « يجب ان تظل افريقيا بعيدة عن الحرب الباردة » الخ وهي دعاية تستهدف ايجاد هوة بين الحركة التحررية الوطنية وبين المستعمر الاشتراكي ، وبالتالي اضعاف الدول المستقلة الجديدة وعزلها ، وزرع الشقاق في الجبهة الوطنية المتحدة .

ان كافة الدول الامبريالية تمارس الاستعمار الجديد ، اليوم . لكن كل دولة منها تستخدم طرقا تختلف الواحدة عن الاخرى ، وتطلب بحثا حسيا في كل حالة معينة من الحالات . فمثلا توجد فوارق مميزة واضحة بين الاستعمار الاميركي والاستعمار الجديد الانكليزي . فالامبريالية الاميركية ، وهي اقوى امبريالية اليوم ، ترتدي اكمل مظاهر الاستعمار الجديد . والامبرياليون الاميركيان « يفضحون » استعمارية الدول الاوروبية ، هادفين من وراء ذلك الى تسهيل تطفلهم هم في امبرطوريات هذه الدول او مستعمراتها السابقة . ويستحق الاستعمار الجديد الالمانى الغربي ، الذي يقوم ، وراء ستار معاداة الاستعمار ، بنشاط متزايد في آسيا وافريقيا ، يستحق دراسة اكثر تعمقا .

اما بريطانيا فانها ما تزال اهم دولة استعمارية ، رغم تفسوق الامبريالية الاميركية على الامبريالية البريطانية . وقد ابسدى الامبرياليون الانكليز مهارة وحذقا كبيرا في التكيف مع مرحلة الانتقال

لقد دخل نضال شعوب المستعمرات ضد الامبريالية ، فسي سبيل تحررها الوطني ، مرحلة جديدة ، وتغيرت ، كذلك ، الستراتيجه الامبريالية في محاولات الابقاء على نظام الاستعمار المنهار . وكنت في الطبعة الاخيرة من كتابي «أزمة بريطانيا والامبراطورية البريطانية» (١٩٥٧) قد اشرت الى ظهور «استعمار جديد» يباين «الاستعمار القديم» ولكنه يعايشه . وقلت اذ ذاك «لقد صاغست السياسة الامبريالية، في المرحلة الاخيرة تكتيكا جديدا يتسع استعماله باطراد ، ويمكن تسميته «بالاستعمار الجديد» .

وراجت هذه التسمية وانتشرت . وسرعان ما اتخذ المؤتمر الثالث للشعوب الافريقية ، في مارس (اذار) ١٩٦١ ، قرارا هاما حول الاستعمار الجديد ، هذا الذي اعتبرته «الخطر الاعظم على البلدان الافريقية التي نالت استقلالها او توشك ان تناله» . وصرح بيسان مؤتمر الدول غير المنحازة ، الذي انعقد في بلفراد في ايلول (ديسمبر) ١٩٦١ ، بشيء مماثل لهذا .

وهكذا ، فمن النافع ، اذن ، ان يجري تحليل عميق للنزعات الحاضرة في الستراتيجه الامبريالية ، التي جرى العرف على تسميتها «بالاستعمار الجديد» .

١ - ما هو الاستعمار الجديد ؟

يعرّف قرار المؤتمر الثالث للشعوب الافريقية ، الذي انعقد في عام ١٩٦١ ، الاستعمار الجديد بأنه «بقاء النظام الاستعماري رغم الاعتراف الشكلي بالاستقلال السياسي للدول الفتية التي تقع ضحية شكل من السيطرة غير مباشر ، واشد حذقا ، يعتمد وسائل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية وتكتيكية مناسبة » .

وقد علمنا لنين ، منذ زمن طويل ، ان السيطرة الاستعمارية يمكن ان تظل قائمة وراء مظاهر خداعة من الاستقلال السياسي . واكد لنين على «ضرورة ان توضح وتفصح باطراد ودون كلل للجماهير الكادحة العريضة في كافة البلدان ، سيما البلدان المتأخرة ، تلك الخدعة التي تمارسها الدول الامبريالية بانتظام ، فتخلق ، وراء ستار انشاء دول مستقلة سياسيا ، دولا تابعة لها تماما في الحقل العسكري والاقتصادي والمالي» (لنين) المؤلفات ، مجلد ٣١ ، ص ١٥١ ، المنشورات الاجتماعية ، باريس - المنشورة باللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٦١ . ان الذي عناه لنين هنا ، هو بخاصة ما دعي «بالدول القوقازية» التي كان استقلالها في اكثر الاحيان وهما من اوهام الدبلوماسية . وهكذا كانت حال النظم الملكية التي انشأتها بريطانيا فسي الشرق الاوسط ، مثلا ، بعد الحرب العالمية الاولى في مصر ، والعراق ، والاردن التي كانت في ذات الوقت ادوات وآلات لسيطرتها . وفي امكنة اخرى

من الاستعمار الى تأسيس دول مستقلة سياسيا ، وتشهد على ذلك عملية تحول الامبراطورية القديمة الى « كومونولث » .

٢ - تحول الامبراطورية البريطانية (من ١٩٤٥ الى ١٩٦١

تظهر التحولات التي طرأت على الامبراطورية البريطانية ، او الكومونولث بعد الحرب العالمية الثانية ، من بيانات الجدول الاتي :

السنة	المساحة	عدد السكان	النسبة المئوية	النسبة المئوية	بالوف الاميال	(بالملايين)	من المساحة	من السكان
١٩٤٥	٩٤	٥٠	٠.٤٨	٨				
١٩٦١	٩٤	٥٢	٠.٤٨	٧٤٢				
الدومينيونات « البيضاء »								
١٩٤٥	٦٩٥٣	٢٤	٥٩٤٩	٣٤٦				
١٩٦١	٦٩٥٣	٣٠	٦٣٤٧	٤٤٢				
جنوب افريقيا ، وجنوب غرب افريقيا								
١٩٤٥	٧٩٠	١٤	٦٤٧	٢٤٢				
١٩٦١	-	-	-	-				
المستعمرات								
١٩٤٥	٣٨٣٢	٥٣٧	٣٢٤٦	٨٦٤٢				
١٩٦١	١٠١٨	٣٣	١٠	٤٤٦				
الدول المستقلة								
١٩٤٥	-	-	-	-				
١٩٦١	١٠١٨	٣٣	١٠	٤٤٦				
المجموع								
١٩٤٥	١١٦٦٩	٦٢٥	١٠٠	١٠٠				
١٩٦١	١٠٨٧٩	٧٢١	١٠٠	١٠٠				

ونرى من هذا الجدول ان سكان المستعمرات البريطانية التي كانت تفاد مباشرة من والت ستريت سنة ١٩٤٠ كان يعادل ٨٦ بالمئة من سكان الامبراطورية . وكانت هذه النسبة في الواقع اكبر من ذلك ، اذ ان الجدول لا يشمل الا الاراضي التي كانت تشكل بصورة رسمية ، جزء من الامبراطورية ، ولا يشمل ، مثلا ولا حصرا ، فطرين كالعراق ومصر كانا في الواقع مستعمرتين بريطانيتين ، وكانا اسميا مملكتين مستقلتين ، « متحالفتين » مع بريطانيا (التي كانت هي نفسها قد نصبت ملكيهما على العرش) .

ان بريطانيا والدومينيونات « البيضاء » كانت وحدها تشكل في داخل الامبراطورية دولا مستقلة يعادل سكانها ١١٦ بالمئة من مجموع السكان الاجمالي (او ١٢ بالمئة) اذا أضفنا اليها الاقلية البيضاء الحاكمة في جنوب افريقيا .

وفي مستهل عام ١٩٦١ كان عدد سكان المستعمرات التي ما تزال تخضع للحكم المباشر من لندن وتدار بواسطة حكام تعيينهم لندن ، قد ضؤل كثيرا ، ولم يعد هذا العدد شكل في يومنا هذا الا ٤٤٦ بالمئة فحسب . وبالإضافة الى بريطانيا والدومينيونات « البيضاء » ظهرت بعد عام ١٩٤٥ ، في داخل الكومونولث نفسه ، مجموعة جديدة من الدول المستقلة الفتيه يبلغ سكانها ٦٠٦ ملايين اي ما يعادل ٨٤ بالمئة . وهكذا فان حوالي ٩٦ بالمئة من سكان الكومونولث يعيشون اليوم في دول مستقلة .

وقد يترأى للوهلة الاولى انه من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٦١ ، زال الاستعمار تقريبا ، وتلاشت معه امبراطوريتها القديمة .

على انه تلاحظ ، الى جانب هذه التحولات ، بعض علائم الاستمرار . فان الكومونولث له عموما ذات مساحة وتركيب الامبراطورية القديمة ، وهو يشمل اكثر من ربع اراضي الكرة الارضية وقاربة ربع سكان العالم . صحيح ان بورما وارلندا ، ومنذ وقت قصير ، اتحاد جنوب افريقيا ، قد خرجت من الكومونولث . الا ان المساحة العامة للامبراطورية القديمة ، التي كانت ١١٤٦ مليون ميل مربع ، ما تزال تعادل اليوم ١٠٤٩

ملايين ميل مربع . وسكان الكومونولث الذين كانوا ٦٢٥ مليوناً ، يلفون اليوم ٧٢١ مليوناً . قد يقول قائلهم بسخرية : « كلما ظلت الامور ظلت هي هي » لكن التغيير عميق في الواقع ، فالكوونولث الجديد لم يعد سوى ظل للامبراطورية السابقة لا اكثر . على ان التغييرات الاكثر اهمية ما تزال في طور جيني ، وسيشهد المستقبل وحده اضمحلال الاستعمار نهائيا وتلاشيها تماما بكافة اشكاله .

اما منطقة الاسترليني فليست هي الكومونولث رغم ان التسميتين تتعدلان من اكثر الوجوه . فكنديست داخله في منطقة الاسترليني . ولكن باستثناء كندا ، تشمل منطقة الاسترليني ، نظريا ، كافة الاراضي التي كانت اراضي الامبراطورية فيما مضى ، كما تشمل اراضي البلدان « الحليفة » سابقا كالكويت ، ودولام تدخل اسميا في الكومونولث مثل ايرلندا ، او دولا صغيرة ايسلندا . ولا تزال الاحصائيات البريطانية تجري المقارنات بين التجارة مع « باقي منطقة الاسترليني » والرساميل التي توظف فيها والارباح التي نرد منها ، مع الارقام العائدة لهذه الاراضي ذاتها حين كانت ما تزال جزءا من الامبراطورية ، مقدمة بذلك (مع الأخذ بنظر الاعتبار ، طبعا ، الخسارة المحسوسة من جراء انتقال كندا من النفوذ البريطاني الى النفوذ الاميركي) فكرة عن ميدان عمل راس المال الانكليزي في العالم . ان انكلترا تهيم عمليا على الجنيه الاسترليني . والمحافظة على مركز الاسترليني في العالم حيال الدولار والماركة الالمانى الغربي هي اليوم من اكبر الهموم السياسية والاقتصادية التي تشغل بال الرأسمالية الانكليزية . ويتبين التعمق في دراسة العلاقات على الصعيد الاقتصادي والمالي ، والصمكري والستراتيجي ، وكذلك دراسة بعض نواحي سياسة البلدان التي تؤلف اليوم جزءا من الكومونولث ، يتبين ان الامبراطورية البريطانية ابعد عن ان تكون قد تلاشت . ان الاستعمار البريطاني لم يباح حلبة المسرح بعد ، كل ما في الامر انه يعتمد بطراد مختلف اشكال الاستعمار الجديد .

واذا كان البناء السابق للامبراطورية البريطانية قد مهدوا الطريق بانشاءهم لبريطانيا كبر امبراطورية استعمارية في العالم ، فانه اليوم يمكن القول ان الامبراليين البريطانيين قد دلوا على الطريق اذ طوروا بالتدرج وانقنوا الاساليب الجديدة للاستعمار الجديد .

٣ - طرق الاستعمار الجديد : التأثير في طابع الدول الجديدة

ما دام الاستعمار الجديد هو ، بالاساس ، اعتماد الامبرالية طرق جديدة للحفاظ على اكثر ما يمكن من سيطرتها ، وعلى امكانية الاستثمار بعد ان يكون تقدم الحركة التحررية الوطنية قد اجبرها على منح المستعمرات استقلالها السياسي ، ما دام الامر كذلك فان اول ما تعنى به الدول الامبرالية المجبرة على التراجع المطرد هو السعي للتأثير بكافة الوسائل في طابع وتركيب الدول الجديدة . وبالطبع ، فان مثل هذا التدخل يكون غير ممكن في حالة اصابة الحكومة الامبرالية بهزيمة عسكرية تامة في مستعمرة ما . لكن الامور تجري عادة في غير هذا المجرى . وقد اظهر الامبراليون البريطانيون حذقا في توقعهم ، في الوقت المناسب ، قرب الانهيار ، ليتخذوا ، في الحال ، الاجراءات التي تضمن نقل السيادة السياسية الى الدولة الجديدة تحت اشرافهم ، ووفقا للاشكال التي اختاروها هم .

ان الطريقة الاشد نموذجية ، التي تتبعها الامبرالية لاجل اضعاف دولة جديدة مستقلة منذ ميلادها ، هي التفرقة . لقد اتبعت هذه الطريقة منذ عام ١٩٢١ مع ايرلندا ، حين عجزت قوات الحملة التاديبية عن اخضاع الجيش الجمهوري الارلندي ، ففبرت الدوائر الحاكمة الانكليزية تكتيكها : عثرت في داخل الحركة التحررية الوطنية الذين اخذوا بوجهة نظرها ، فقدت مع جماعة لقيادة الذين يميلون الى المصالحة وعلى رأسهم كولنز اتفاقا على تسليم ايرلندا استقلالها شريطة اجراء تقسيم . وقد عاد هذا التقسيم ، الذي فصل المنطقية الزراعية عن الصناعية ، عاد بالوبال على تطور كل قسيمي البلاد خلال

معها للقيام باجراءات تهدف الى تلافي صعود حركة شعبية ثورية . وقد طبقت هذه الطريقة ، مع تحويل محلي ، يقتضيه الحال ، في بلدان آسية متطورة مثل الهند وسيلان وبورما وباكستان .

وتبدل الان محاولات لتطبيق هذه الطريقة نفسها في بلدان افريقيا . غير ان الصعوبات هنا اكبر ، بسبب ضعف تطور البرجوازية الوطنية . وفي هذه الحال يكون الحكم ، في معظم الاحيان ، من نصيب القادة البرجوازيين لحركة وطنية واسعة ، حيث لا تزال الطبقة العاملة وفوى اليسار عموما اضعف من ان تقوم بدور قيادي . ان حكومات من هذا الطراز بقيادة البرجوازية الوطنية كانت انتصارا للحركة الوطنية التحررية ، افسح المجال للتقدم الحثيث . كما كان من جهة اخرى معبرا من تسوية اجريت بين الحكومات الجديدة والامبريالية ، في الواقع . فمهما تشبثت البرجوازية الوطنية بالعمل على نصره المصالح الوطنية ، كما تفهمها هي ، ومهما كانت التناقضات بينها وبين الامبريالية ، فانها تظل تحتفظ بارتباطات وثيقة مع الامبريالية وتريد ، مثل هذه ، مقاومة الحركة الجماهيرية الثورية . ان الوضع الدولي (تقدم الاشتراكية والكفاح ضد الامبريالية) ونسبة القوى الاجتماعية الداخلية ، ان هذين العاملين يؤثران تأثيرا قويا في تطور هذه البلدان . وبفضل هذين العاملين يمكن للتعاون الوثيق الاولي مع الامبريالية ان ينحسر ، لتحل محله مظاهر استقلالية اشد حزمًا وصلابة ، بل وحتى خلافات وخصومات مكشوفة مع الامبريالية (حرب السويس ومضاعفاتها في كافة هذه البلدان) .

ويحرص الامبرياليون البريطانيون ، على الدوام ، قبل ان يمنحوا مستعمراتهم الاستقلال ، على ايجاد مرحلة انتقالية تطبق خلالها ، وعلى التوالي ، « دساتير استعمارية » تقضي بالتمثيل المحدود للسكان المحليين ، وعلى المشاركة الوثيقة في الادارة مع حكومة السندول المستعمرة ، لفرض « تعويد » الفئات الحاكمة الجديدة على ممارسة « مسؤولياتها » .

على ان مبدأ استمرار الادارة انما هو وسيلة اخرى نستعين بها للحفاظ على النفوذ الامبريالي في الدول المستقلة حديثا : يظل موظفون بريطانيون ، في المرحلة الاولية ، يشغلون المناصب القيادية ، ولا تحل الملكات الوطنية محلهم الا بالتدريج .

وحيث ان الظروف اقل ملائمة للمحافظة على استمرار نفوذهم هذا عن طريق برجوازية وطنية متطورة ، فان الامبرياليين يستغلون اذ ذاك الناخر الاقتصادي عند الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، والتي لم تتوطد دعائمها بعد النوطد الكافي ، كما ويستغلون الانقسامات العنصرية ، والحضارية ، والقومية ، والطائفية ، والقبلية ، ويحاولون جهدهم اضعاف الحكومات الجديدة بكافة صنوف الدسائس . هذا ما جرى مثلا في نيجيريا ، وفي غانا ، والكونغو ، وفي بلدان افريقية اخرى . كما جرى في غوبان البريطانية ، والملايو ، وسنغافورة .

اجراءات في الاستراتيجية وفي الحقل العسكري :

كان الجهاز العصبي للامبراطورية البريطانية مؤلفا من شبكة من الاحميات والقواعد ونقاط الارتكاز في ما وراء البحار ، وعن طريق هذه الشبكة كانت الامبراطورية البريطانية تهيمن على طرق المواصلات العالمية ، وتحافظ على الارتباط بين الاراضي المتفرقة ، وتواصل استثمارها ، مكافحة في الوقت نفسه مزاحميتها من الامبرياليين ، وكان باستطاعتها كذلك ان تجمع بسرعة قواتها ضد كل محاولة للاتفاض .

الاحلاف والمعاهدات العسكرية :

ان المثال الاوضح والاشد جلاء على هذا النوع من المعاهدات كان حلف بغداد (الذي اصبح حلف السننو بعد انسحاب العراق منه) ، والذي كان من جملة الموقعين عليه باكستان وتلك البلاد نصف المستعمرة ، مثل ايران . اما الكتلة العسكرية المعروفة باسم « اوتاز » ،

الاربعين عاما ونيف الاخيرة ، واعاق تقدمهما السياسي والاجتماعي . فالجمهورية الارلندية ، المفروض انها مستقلة رسميا عن الكومنولث ، لا تزال تابعة ، بائسة ومستغلة ، من قبل بريطانيا الامبريالية ، لا زالت تزودها بالماشية والايدي العاملة الرخيصة ، اما ارلندا الشمالية فلا تزال مرتبطة ببريطانيا في اطار المملكة المتحدة ، تعيش في ظل حكم طوارئ وانتخابات مزورة ، وبطالة تفوق مئيلتها في بريطانيا بكثير . والمثل الاسطع على تطبيق هذه الطريقة هو تقسيم الهند بين باكستان والاتحاد الهندي عام ١٩٤٧ ، حين اضطرت بريطانيا الى التخلي عن امبراطورية الهند . ان هذا التقسيم قد سمم العلاقات بين الدولتين . واكثر من ذلك ، فان جيشي الهند والباكستان كانا يحارب احدهما الآخر ، وكل منهما تحت قيادة ضباط الانكليز . ان هذا النزاع قد القى ويلقي الصبء الثقيل على ميزانية كلا البلدين ويسهل تدخل الامبرياليين (بمن فيهم الامبرياليون الامريكان) في شؤونهما الداخلية ، مظهرين التامين ، دوريا ، لكل من الطرفين . كما ان هذه الطريقة ذاتها قد اتبعت في فلسطين وفي قبرص وهدد الامبرياليون الفرنسيون بتطبيقها في الجزائر .

ان هذه الطريقة تحتل المكان الاول ، بخاصة ، في القارة الافريقية حيث تصبح الاقاليم التي استولت عليها الدول الاستعمارية حين تقاسمت افريقيا ما بينها ، لتصبح دولا مستقلة بحدود مصطنعة . ويلتجىء الامبرياليون ، في بعض الاحيان ، الى طرق اخرى بغيبة اخضاع الدول المستقلة حديثا عن طريق جمعها في اتحادات اقليمية تحت رعاية الدول المستعمرة السابقة ، او في اتحادات اوسع تتيح المجال لحياء الامبراطوريات القديمة .

التاثير في التراكيب السياسية الداخلية في البلاد المستقلة الجديدة :

ان تشكيل دول مستقلة جديدة تحت رعاية الامبريالية يفسح المجال لحد ما امام المستعمرين السابقين لاجل اختيار الاشخاص الذين سيعهد اليهم بالحكم مباشرة ، وكذلك لاجل التاثير في التراكيب السياسية وفي طبيعة الدستور .

اما مقدار هذا التدخل الامبريالي ومداه في تأليف الحكومات الجديدة ، فانه يختلف باختلاف درجات تطور الحركة الوطنية ، ووحدتها ونضجها السياسي ، وشدة وعمق النضالات السابقة .

ان الحكومات الجديدة في البلدان التي اصبحت مستقلة تتألف احيانا من ممثلين للفئات الرجعية ، بل ومن عناصر اقطاعية (شيوخ ، امراء ، رؤساء عشائر) ، او من مفارمين عسكريين واشقياء معروفين بشدة عدائهم للحركة الوطنية الديمقراطية . ان هذه الطريقة قد استعملت ، في الواقع ، قبل ان يوجد الاستثمار الجديد ، كما ثبت ذلك مثلا قيام بريطانيا بنصب « ملوك » العراق ومصر والاردن ، ثم ليبيا ، على العروش . وفي عام ١٩٦١ اعترف باستقلال الكويت ، التي كانت اغنى

مستعمرة بريطانية بالبترول في الشرق الاوسط . ويحكمها شيخ تسانده لندن ، فيما بقيت الحركة الشعبية تخضع للقمع العنيف . اما دور هؤلاء الملوك المستقلين ، شكليا ، فهو ، دور القرقوزات التي يحركها سادتها الامبرياليون . ولكن حتى في هذه الحال يمكن ان يكون لتقدم الحركة المناهضة للامبريالية في العالم اجمع انعكاساته الهامة على التطور المقبل لللاحق لبلد معين . من ذلك ، مثلا ، ان انشاء اتحاد الملايو في ظل حكم السلاطين كان مقصودا منه ، في الاصل ، الوقوف بوجه الحركة التحررية . على ان الاحداث قد ارغمت حتى حكومة الملايو الرجعية هذه على المشاركة في هذا العمل او ذاك من الاعمال المناهضة للامبريالية عموما ، مثل استنكار وشجب التمييز العنصري في جنوب افريقيا .

وحيث تبلغ الحركة الوطنية ، بقيادة البرجوازية الوطنية ، درجة من القوة يتعسر معها خنقها ، فان الامبرياليين يسعون الى الاتفاق مع الفئات العليا البرجوازية الوطنية لتأليف حكومات جديدة تتفاهم

فانها تضم الملايو ، والباكستان ، وتايوان (سيام) والفلبين . صحيح ان الولايات المتحدة لها القدر العلى في هاتين الكتلتين العسكريتين. الا ان بريطانيا من جهة اخرى ، عقدت عددا كبيرا من الاتفاقات العسكرية الثنائية المسماة بالدفاعية ، بين بريطانيا ونيجيريا ، مثلا ، وبين بريطانيا وليبيا الملكية ، وبين بريطانيا والملايو (بقاء قوات احتلال بريطانية في الملايو) ، وبين بريطانيا وسيراليون . وقد اشترط منح الاستقلال ، في كل مرة ، بمفرد معاهدة عسكرية . وكذا كان الامر مع كينيا .

وشنت الجماهير الشعبية النضال ، بعد نيل الاستقلال ضد هذه المعاهدات التي تربط بلدانها بعجلة الامبريالية . وقد حطمت ثورة العراق عام ١٩٥٨ اغلال المعاهدة العسكرية التي عقدت سابقا . وهناك حركة شديدة التطور في نيوجيا ضد الاتفاق العسكري الذي فرض على هذه البلاد .

القواعد :

لم تضمن الامبريالية البريطانية باي شيء في سبيل المحافظة على شبكة قواعدها فيما وراء البحار في البلدان (باستثناء الهند) التي اضطرت لمخها الاستقلال ، ومنها ، مثلا ، مصر ، في منطقة قناة السويس ، وليبيا والاردن وفبرص وسيلان . وتطالب الحركة التحررية في كافة هذه البلدان ، كما في البلدان التابعة والمستعمرة ، بحزم اشد بازالة هذه القواعد ، وقد فازت بمطلبها هذا في كثير من الحالات . فقد ارغمت الامبريالية البريطانية على الجلاء عن قواعدها في مصر (مستيضة عنها بقواعد جديدة في فبرص) ، وفي العراق وفي سيلان (لكنها اقامت شبكة جديدة فسي عدن - البحرين - مالديف - نيروبي) . وفيما عدا فبرص وليبيا ، فان القواعد البريطانية الرئيسية ما وراء البحار ظلت موجودة فماتبقى من المستعمرات والاراضي النابغة : هونغ كونغ ، سنغافورة ، البحرين ، عدن ، كينيا ، جبل طارق ، وجزر الانتيل البريطانية .

التدريب العسكري وتجهيز السلاح :

تظل الدول المستقلة حديثا ، حتى ولو تمكنت من تجنب عقد احلاف عسكرية او اقامة قواعد اجنبية على اراضيها ، تظل مرتبطة ببريطانيا في الواقع بروابط وثيقة جدا ، من الناحية الاستراتيجية والعسكرية ، ذلك ان قواتها المسلحة تظل ، في البدء على الاقل ، تحت قيادة ضباط بريطانيين (كما جرى في الهند وقتها ، وكما كان الحال في نيجيريا) ، طالما ان تنشئة ملاكات الضباط من سكان البلاد في بريطانيا لم تتم . ذلك ان ضباط هيئة الاركان في جميع بلدان الكومنويلث يخرجون حتى اليوم من « امبريال ستاف كولدج » في كامبرلي . كما ان بريطانيا تقدم اسلحة من نماذج وطرازات معينة . ونذكر بذلك الغضب المكشوف (الذي سرعان ما اردف بالعدوان المسلح) الذي واجهت به دوائر بريطانيا الحاكمة خطوة مصر بطلب الاسلحة من بلد اشتراكي . كما ان استنكار بريطانيا لم يكن اقل عندما قررت حكومة غانا اعفاء الجنرال البريطاني وتنصيب جنرال غاني مكانه على رأس قواتها المسلحة .

الاجراءات المالية والاقتصادية :

ان ما يشكل جوهر السياسة الاستعمارية لدى الامبريالية هو الاستغلال الاقتصادي لبلد اضعف واقل تطورا ، بهدف تأمين الارباح المرتفعة لاحتكار الدولة الامبريالية . ومن هنا فان الامبرياليين مستعملون ، عند الضرورة ، وعندما يكونون مكرهين ، للقبول بتغييرات ، حتى العميقة منها ، في التراكيب السياسية للبلدان المتخلفة ، ولتسليم السيادة السياسية الى قادة الحركة الوطنية ، شريطة الحفاظ على مواقعهم الاقتصادية غير ممسوسة جوهريا . لكنهم يقاومون مقاومة مستميتة اذا تعرضت هذه المواقع للخطر الحقيقي : هذا ما رأيناه مثلا ، حينما ارادت حكومة مصدق ان تطبق قانون تامين صناعة البترول ، فرد الامبرياليون يوم ذلك بانقلاب زاهسدي ، كما رأيناه يوم شن الامبرياليون الانكليز والفرنسيون ، والعميلة اسرائيل ، الحرب على

مصر عقب تامين شركة قناة السويس :

وهكذا ، فان مواصلة - بل حتى توسيع اذا امكن - الاستثمار الاقتصادي والمالي للبلدان المتخلفة والضميمة التطور ، هو امر يرسخ في اساس الاستثمار الجديد ، وذلك بالرغم من الاعتراف بالاستغلال السياسي . ويظل من المهم ، بعد ذلك ، ان نميز بدقة بين اشكال الاستثمار القديمة والجديدة .

الابقاء على الاشكال القديمة للتبعية الاقتصادية :

لقد وضعت الاحتكارات الامبريالية يدها ، في كافة البلدان المستعمرة ، على الثروات الطبيعية الاساسية (البترول خصوصا) ، كما ان السكك الحديدية وكافة وسائل النقل ، والموانئ ، والمراسل الكهربائية ، والملاحة ، والتجارة ، والمصارف ، كانت على العموم في ايدي الامبرياليين ، وفي الارياف : كان المستثمرون الاجانب والمستوطنون يحتكرون الاراضي الخصبة في مستوطناتهم المسلحة ، كما كانوا يبنون المزارع في افضل الاراضي ، فيما بقي المزارعون ، في الاماكن التي كانت تسود فيها العلاقات الافطامية والملكية الصغيرة ، بقوا في وضع القناتة غير المباشرة تجاه الاحتكارات الكبيرة التي كانوا ينتجون لها المواد المعدة للتصدير . وعادة يحتفظ الامبرياليون بكافة ممتلكاتهم بعد انتقال السلطة السياسية الى حكومة وطنية . ذلك ان التحرر السياسي من السيطرة الامبريالية لا يستلزم دائما التحرر الاقتصادي من الاستغلال الامبريالي . كما ان النضال ضد هذا الاستغلال لم يتبدى الا بعد نيل الاستقلال السياسي ، وهو ما يزال حتى القرن في مرحلته الاولى . وكانت اكثر الحكومات المستقلة الجديدة مضطرة للتصهد بعدم مساس المؤسسات التي يملكها الاجانب (تصهدت الهند ، مثلا ، بعدم تامين الممتلكات الاجنبية قبل انصرام عشر سنوات) ، وان تضمن الاسترداد ، فيما بعد ، لقاء دفع الثمن حسب الاسعار الراجحة ، وهو ما ضمن ويضمن للراسمال الاجنبي البقاء ، فعلا ، تحت اشكال اخرى ، اكثر عصرية ، بل واوفر ربحية في بعض الاحيان !

اشكال جديدة لتوظيف الرساميل وللتقلص الاقتصادي والمالي :

لا يزال تصدير الرساميل يلعب دورا اوليا في سياسة تغفلل الامبريالية وتوسيع سيطرتها على البلدان المستقلة . وقد بقي هذا « التصدير » بالنسبة للامبريالية البريطانية ، طوال عشرات السنين ، وسيلة لاختفاء واقع الامور : فكانت الارباح الواردة من الرساميل الموظفة سابقا يعاد توظيف بعضها ، اما الباقي الذي يشكل جزيئة خالصة فكان يمضي الى جيوب اقطاب المال في الدولة الامبريالية . ان هذا التصدير « الطبيعي » والذي ما يزال مستمرا ، قد اتساح لبريطانيا تكديس رساميل ضخمة في الهند وفي اكثر البلدان التي فازت باستقلالها حديثا .

وفي مقابل ذلك ، ومن ناحية اخرى ، ظهرت ، اخيرا ، اشكال جديدة لتوظيف الرساميل ، العامة منها والخاصة . ففي حالات معينة اعطيت اموال حكومية وتسليفات خاصة في آن واحد مع عقد معاهدات « المساعدة الاقتصادية » او « التكنيكية » ، الامر الذي ضجت به الدعاية الامبريالية واصفة اياه « بالمساعدة » للبلدان المتخلفة ! ان هذا الشكل من اشكال الاستعمار الجديد تضمنه الولايات المتحدة على نحو واسع اما بريطانيا ، فبسبب عدم استقرار ميزان مدفوعاتها وتدني مواردها ، فهي لا تستطيع الالتجاء الى مثل هذه الاجراءات الا على نطاق ضيق . ان مشروع كولومبو ، وجميع « شركات الانماء » وكافة مشاريع « الانماء والرفاهية » تدخل في نطاق هذا النوع من العمليات .

ان كلمة « مساعدة » تستعمل في لغة الامبريالية للدلالة على اشد الامور اختلافا . ان الامبرياليين يبدلون كافة الجهود ليشنوا ان حجم « المساعدة » الرأسمالية يفوق حجم المساعدة الاشتراكية . وهم يطلقون كلمة « مساعدة » على :

(١) الاسلحة وسواها من التجهيزات العسكرية ، التي تؤلف

استثنائية بالنسبة الى النضال ضد الاستعمار الجديد. فالبرجوازية الوطنية نيل اكثر الاحيان الى القيام بلعبة مزدوجة ، والى التردد، ويظهر هذا الميل باشكال مختلفة تختلف باختلاف البلدان والازمان ويتجلى هذا خصوصا في افريقيا .

٥ - سياسة الشيوعيين

ان بيان مؤتمر ممثلي ٨١ حزبا شيوعيا وعماليا والبرنامج الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي يحدد بوضوح الخصائص التي تتميز بها اشكال الاستعمار الجديدة .

ان برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي يميز بين ثلاثة انواع من الشعوب المناضلة ضد الامبريالية من اجل حربتها: «ان الشعوب التي تطرح عن اعناقها اغلال الاستعمار هي على ثلاثة اشكال مختلفة من التحرر . فمنها شعوب كثيرة انشأت فعلا دولها الوطنية وناضل في سبيل الحصول على استقلالها الاقتصادي ، ونوطيد استقلالها السياسي . وناضل ضد الامبريالية ونظم الحكم الرجعية الموالية لها شعوب بلدان مستقلة شكليا ولكنها تابعة عمليا من الناحية الاقتصادية والسياسية للاحتكارات الاجنبية . اما الشعوب التي لم تحطم بعد فيود العبودية الاستعمارية فهي لا تزال تواصل كفاحها البطولي ضد مستعبدتها الاجانب» .

واشار بيان الاحزاب الى انه توجد ظروف موضوعية مؤنسية لقيام دول مستقلة ديمقراطية وطنية تتميز جوهرها بالامح التالية :

١ - تدافع بشكل ثابت وحقيقي عن استقلالها الاقتصادي والسياسي ضد الامبريالية .

٢ - تحارب الامبريالية واحلافها العسكرية ، وتقاوم انشاء القواعد الاجنبية في اراضيها .

٣ - تحارب اشكال الاستعمار الجديدة وتفضل الراسمالي الامبريالي .

٤ - تدفع بالديمقراطية الى امام وتوسع الحقوق الديمقراطية .

٥ - تقوم باصلاحات اجتماعية ديمقراطية ، وفي مقدمتها اصلاح الزراعي .

ان ظهور دول مستقلة وطنية ديمقراطية هو هدف يوضح الطريق التي ينبغي ان تتبعها الحركة التحررية الوطنية التي تضم البرجوازية الوطنية ، والاشقيين ، والبرجوازية الصغيرة في المدن ، والتي يترسخ فيها دور الطبقة العاملة التي تسترشد بالماركسية - اللينينية ، وكذلك دور تحالف العمال والفلاحين .

ان الاحزاب الشيوعية في الدول الراسمالية مسؤولة مسؤولية خاصة بهذا الصدد ، وكذلك الامر بخصوص الحركة العمالية والديمقراطية الواسعة : انها مسؤولة تقوية التحالف مع الحركة التحررية الوطنية ، في الاوضاع الجديدة ، في البلدان المستعمرة او المتحررة حديثا ، وذلك للنضال ضد اساليب الاستعمار القديمة والجديدة التي بتمدها الامبريالية حسب الظروف . ان الاستعمار الجديد هو عدو الشعوب التي كانت مستعمرة ثم نالت استقلالها ، على انه عدو شعوب البلدان الامبريالية ايضا . فهو يستدعي بالضرورة تكريس نفقات ضخمة لاعالة القوات المسلحة ما وراء البحار ، وصعوبات اقتصادية خطيرة حقا ، والعجز الزمن في ميزان المدفوعات (بريطانيا) ، ويستتبع كل هذا اشتداد الهجوم الاقتصادي على الطبقة العاملة في الدولة الامبريالية . وقد كان برنامج حزب العمال البريطاني ومؤتمر اتحاد النقابات البريطانية (الذي دعمه بعض قادة الجناح اليساري في حزب العمال البريطاني ليشكل برنامجا جريئا تنكر للاستعمار) كان في الحقيقة برنامج استعمار جديد .

ان تلاحم نضال عمال البلدان الامبريالية والشعوب المستعمرة او التي استقلت حديثا يمكن ان يعجل بهزيمة الامبريالية ، ويؤمن السلام ، والتحرر الوطني الكامل ، ليفسح المجال لانجاز المهمات الكبيرة ، مهمات اعادة البناء الاقتصادي والاجتماعي ، ويفتح الطريق لتعاون يتسق مع مصالح الكادحين .

ترجمة جليل كمال الدين

موسكو

الخطر الاكبر من المساعدة الامريكية (٢) المساعدات التي يقصد منها دعم نظم الثورات المضادة مثل حكومة تشانغ كاي شك ، ونغودنه ديام ، وبعض حكومات الشرق الاوسط (٣) انشاء «مرتكزات» ستراتيجية ، و«لرق ستراتيجية وقواعد جوية الخ ويدخل هذا في نطاق «المساعدة الاقتصادية» (٤) تسليفات خاصة لشراء فوائض سلع الاستهلاك الكاسدة وهذه ايضا تمنح باسم «المساعدة الاقتصادية» (٥) تسليفات عامة لاجل اشاء مؤسسات عامة وطرق وتطوير وسائل النقل الخ ، وهذه اشياء قد لا تأتي في البداية باي ربح ، الا انها تسهل تغفل التجارة الخاصة في هذه البلدان ، (٦) توظيفات خاصة لجني الارباح ، (٧) مساعدة اقتصادية حقيقية لافساح مجال التطور الاقتصادي المستقل امام المستعمرات السابقة ، بما في ذلك التصنيع . ان هذا الشكل الاخير من المساعدة تعتمد به خاصة البلدان الاشتراكية ، وليس الا قبل فترة قصيرة من الوقت كان الامبرياليون مكرهين على القيام ببعض المحاولات ، المحصورة جدا للتسابق مع البلدان الاشتراكية في هذا الميدان ، مثل قيام بريطانيا ومانيا الغربية بانشاء بعض مصانع الفولاذ في الهند . على ان هذه المساعدة لا تشكل سوى جزء بالغ الضالة في مجموع صنوف «المساعدة» الامبريالية .

وهكذا ، فان «المساعدة» الامبريالية هي في الواقع شكل من اشكال الاستعمار الجديد ، وتأتي هذه المساعدة مفروضة بشروط اقتصادية وسياسية بل وحتى عسكرية ، والقرض منها اجتنابا للبلدان المستقلة حديثا الى فلك الامبريالية ، وهي تسهل تغفل الرأسمال التجاري واشتداد الاستثمار ، كما انها تضمن تدفق البعثات و«الخبراء» و«المستشارين» من كل صنف ، بمن فيهم الجواسيس ، على هذه البلدان .

وعلى هذا المنوال تلتحم الاشكال القديمة والجديدة للتغفل الاقتصادي والمالي الاستعماري .

٤ - الحركة التحررية الوطنية والاستعمار

تبدى الحركة التحررية الوطنية ادراكا يتسع باطراد للقضايا والاطار الجديدة الكامنة وراء الاساليب التي يتبعها الاستعمار الجديد . وقد ادرك بعض قادتها منذ البداية ان الاستقلال السياسي يمكن ان يكون الخطوة الاولى نحو الاستقلال الاقتصادي . وادرك آخرون ان النضال في سبيل الاستقلال الاقتصادي اكثر مشقة من النضال الذي سبقه في سبيل الحرية السياسية .

ان المعركة الجوهرية ضد الامبريالية تدور بالدرجة الاولى حول القواعد والمجاهدات العسكرية . وقد احرزت البلدان الحديثة الاستقلال وما زالت تحرز النجاحات الهامة في هذا الميدان . وتدور هذه المعركة ، بالدرجة الثانية ، حول تأمين ممتلكات الاحتكارات الامبريالية . ولا يزال النضال هنا في بدايته ، وهو يصطدم بمقاومة مسعورة بنوع خاص من جانب الامبرياليين ، سواء تعلق الامر بقناة السويس ، ام بسكر كوبا ، ام بترول الشرق الاوسط .

ان الاستعمار الجديد يريد ان يحول دون كل تقارب بين الدول الجديدة الفتية والعالم الاشتراكي ، وهو يستعمل لهذا الغرض شعارات تقول مثلا : «ظلوا بعيدا عن الحرب الباردة !» و«احذروا الاستعمار الروسي» الخ . فاذا نجح الاستعمار الجديد في تفرقة الاكثرية المناهضة للامبريالية من بلدان العالم ، فان الدول المستقلة حديثا ، الضعيفة منها والمنعزلة ستكون فريسة سهلة للامبريالية ، ولقمة سائفة لها . ذلك انه فقط بفضل قوة الاشتراكية المعاصرة تمكنت هذه الامم - ومعظمها لا يزال ضعيفا - من نيل الاستقلال .

وتسعى الامبريالية ، من ناحية اخرى ، الى زرع الانقسام بين الدول الفتية ، دافعة اياها الى تاليف التكتلات المختلفة ، والتي معارضة كتلة الدار البيضاء مثلا بكتلة مونروفيا ، على انه لا يصح اطلاق حكم فاطح على طابع هذه التجمعات بين الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، ذلك ان هذا الطابع قابل للتغير السريع تحت تأثير الاحداث السياسية ، كما رأينا في تونس .

ان نسبة القوى الطبقية في الدول الفتية تكتسب اهمية